

ابن رشيق

- من محاضرة الاستاذ عبد العزيز الراجكوتي -

﴿ صاحبنا الهرم بصقائية ﴾

من سوء الحظ ليس بأيدينا من تاريخه بصقلية ما يرشدنا . وأسبابه على ملهو
الظاهر (١) أنه لم يعمل هناك عملا يصلح للذكر أصلاً أو على ما بلغنا (٢) هذا
المهد كان عهد هرمه وهوومه (٣) ملوكها الحسنيون كانوا يتحاربون فيما بينهم
وطلبوا الطاغية الذي كان فزع معظم الجزيرة في هذا الأوان كما قال للشريف
الادريسي في نزعة المشتاق (١) :

« ولما كان في سنة (كذا) اربعمائة وثلاث وخمسين سنة افتتح فرور بلادها
وقهر بن معه طغاة ولأتم وأجنادها الملك العظيم وجار بن تغريد خيرة ملوك
الافرنجيين » .

ولا يبعد أن يكون صاحبنا ضاع في هذه المأوشة (٤) من يؤرخه ؟ فإن جميع
مسلمى الجزيرة كانوا بما فاجأهم خيارى تراعهم سكارى . وأما مسلمو افريقية فاتهم
لم يخلوهم في نائبة فيما سبق وكانوا في هذا الزمان مشغولى البال بما فاجأهم . إلا
الشريف الادريسي فإنه يرى بيضة الاسلام بالجزيرة قد غفلت والمسلمون قد
نكبوا وهو مع ادعاء السيادة والشرف بشت بكتبتهم شامت أعداء الدين . اللهم
إننا نؤذ بك من شامة الأعداء . وهذا كل ما عثرنا عليه من هذا البلب . قال
ابن بسام في النخيرة على ما نقل عنه ابن فضل الله (٢) :

« فخرج ابن رشيق يومئذ [يوم أحرق المعز قصيدته على ما مر] من عنده
على غير طريق وكان وجهته الى صقلية . وكان ابن شرف قد سبقه اليها وقد

قته (؟) عليها . وكان قه وقع بينهما بالقيروان ، ما وقع بين الخوارزمي و بديع الزمان . فلما اجتمعا يومئذ بصقلية تنمر بمضهما لبعض ، وتشوق أعلام البلدة لما كان بينهما من ابرام وتقضى . فقص ابن رشيق بعض اخوانه وقال له : أنتم علما الاحسان ، وشيخا أهل القيروان . وقد أصبحتما بحال جلاء ، وبين الاعداء . والأشبه بكما أن لا تقريا أديعكما ، ولا تطعما الاعداء لمؤمكما . فقال له ائت ابن شرف . فوجده أنجح للسلم ، وأدنى الى الملم . يرى أليد من صبيه وصعده ، وأعطاه بذلك صفتي لسانه ويده . وكان ابن رشيق ربما اعترض وتعرض ، وتحلب وتلظ . وأما ابن شرف فلم يحل ملعقد ، ولا حال عن [ما] عهد



قال أصحاب المعجب^(١) والمالم^(٢) ونفح الطيب^(٣) وغيرهم ان ابن شرف استهض ابن رشيق [ولعله بصقلية أو افريقية] الى الاندلس فأجابه :

مما يزهدنى فى أرض انيلس سماع معتضد فيها ومعتد
أسماء مملكة فى غير موضعها كالمريحكى انتفاخأصوله الاسد

قالوا فقال ابن شرف :

إن ترُمك الغربَةُ فى معشر قد جُبل الطبع على بُغضهم
فدارهم مادمت فى دارهم وأرضهم مادمت فى أرضهم

إلا أن الذى تحقق لدى بعد طول البحث أن الاولين ليسا لابن رشيق بَنَّةً والآخرين يمكن أن يكونا له ولكن فى جواب غير اليتين السابقين وُعدنى على عدة دلائل :

(١) المعتضد وابنه المعتمد لم يكونا أساءاً إليه حتى يستوجبا الهجو منه ، بل

كان المعتضد طلبه فلو وصل بحضرته كما كانا يتعنيان فما كان يعتذر به عن المجو
إذن ؟

(٢) عزا البينين ابن خلّكان في ترجمة ذي الوزارتين أبي بكر بن عمار
إليه وذكر للهجو خيراً قريناً بالصواب (١)

(٣) ما كان المعتضد جلس بعدُ على كرسيّ الملك ولا تلقّب بالمعتضد فأنه
تملك سنة ٤٦١ (٢) ومات صاحبنا على قول (٣) في السنة ٤٥٦ هـ وابن شرف
في السنة ٤٦٠ هـ فهل من الممكن أن يهجوّه بعد موته - وأنا أمتدّد وقوع القصة
استبعاداً لا مزيد عليه - وما أكثر ما يتبع السامعون في مثل هذه المواقف
الظنون - عليّ أن ألفت الانشاد ربما أوهم السامع أن البيت للمنشد فوق في وادي
تضليل

وأما بيتا ابن شرف فلا أستبعد أن يكونا لعلّ بن فضال (وفضالة سبق قلم)
المجاشعي البيرواني المتوفى سنة ٤٧٩ والترجم له في معجم الادباء (٥ : ٢٨٩)
على ما في المعاهد (٤) - ثم يكون بداله أن يمتحن سؤسه في هذه الصنعة من
التجنيس التي امتاز بها أبو الفتح البستي فيكون قال علي ما في المعاهد أيضاً (٤) :

يا ناويا في معشر	قد اصطلى بنارهم
ان تبتك من شرارهم	على يدَيّ شرارهم
أو ترم من أحجارهم	وأنت في أحجارهم
فما بقيت جارهم	ففي هواهم جارهم
وأرضهم في أرضهم	ودارهم في دارهم

(١) ملخصه أنه ولاء على كورة تدمير فتطلب عليها مستبداً بها وكتب الى ولي نعمه كتباً
لم يراع فيها جانب الادب وهجا المستبد وأباه بيدين ثم ذكرهما ٢ : ٧

(٢) الوفيات ٢ : ٢٩ (٣) الوفيات ١ : ١٣٣ (٤) ٢ : ٧٠

أو يكون المزو على العكس أى البيتان يكونان لابن شرف وهذه الآيات
الابن فضال إلا أنه لا شك أن البيتين الدالين ليسا لصاحبنا مرة

ملوك الطوائف بالاندلس وإن كان كل منهم يسمى بالخلافة وينتمى الى
الاقاب السامية إلا أنه كان في عهدهم لعلوم الآداب والاولائل نهضة لم تقدر لتلك
البلاد قبله ولا بعده - وهذا أبو الفضل^(١) الدارمي لما رأى ما حل بالقيروان
ارتحل منها الى سوسة ثم منها الى دانية ثم الى بلنسية ثم الى طليطلة فأكرم منواه
صاحبها المأمون بن ذى النون وأجزل قراء وتوسع له وتخدمته وأجرى له ستين
مئة^٢ في الشهر الواحد ثم وصل باستمرار جرابته بعد وفاته سنة ٨٤٥٥ على خاشيته
وتلامذته على ما في المعالم . وأما ملوك بني العباد فإننا نراهم في تربية المعارف وجلب
أهل الفضل من كل صقع سابق الطلبة وكان المعتمد أفضلهم وأنبههم . ذكر المهاد^(٣)
وابن خلكان^(٤) أن المعتمد أرسل إلى كل واحد من أبى العرب الزبيرى الصقلية
وأبى الحسن المحضرى خمس مائة دينار ليفدا اليه بالاندلس فكتبوا اليه على
الولاء :

لا تعجين لرأسى كيف شاب أسى واعجب لأسودعين^(٥) كيف لم يشب
البحر للروم لا يجرى السفين به إلا على غرر والبر للرب

أمرتنى بركوب البحر أقطعه غيرى لك الخير فأخصه بهذا الداء
ما أنت نوح فتنجينى سفينته ولا المسيح - أنا أمشي على الماء
ثم لما استولى رجار الافرنجى على صقلية انجلى أبو العرب عنها ووصل بمحضرة
المعتمد وكان صاحبنا يتردد في أول أمره في ركوب البحر والجواز الى الاندلس
عادة العرب من قديم كما يظهر من قوله :

(١) العالم ٣ : ٢٤٢ (٢) فى الحريدة أمارى ٦٠٨ (٣) ١ : ٣٤٣ (٤) ٢ : ٢٤٣

البحر صعب المرام مرَّ لا جُعلت حاجتي اليه
أليس ماءً ونحن طين فما عسى صبرنا عليه

وقوله (عن مرا كبة البيتين) إلا أنه لما علم رغبة المعتضد في جلبه عزم على
الانضواء اليه ولكن لم يوفق كما قال ابن بسام^(١)

« أخبرني بعض وزراء اشيلية قال جهز عباد (المعتضد) بمضى التجار الى
صقلية وكان ابن رشيق كثيراً ما يسمع بذكر عباد فيرتاح الى جنبه ، ارتياح
الكبير الى شبابه . فلما سمع بمقدم ذلك التاجر لزم داره وجعل يتردد اليه ويؤشاه ،
ويقترح عليه لقاء عباد ويتمناه . والتاجر يعده ويمنيه ، ويقرب له ذلك
ويدنيه . حتى أسمعحت الرياح ، وأمكن في ميدان البحر المراح . ذهب التاجر
لطيفته ، وخلي بين ابن رشيق وأمنيته . وأخبر التاجر عباداً بذلك كله . يتبجح
له بما هنالك . فتابع عباد في نكاله ، وأمر باستصفاء ماله . ثم راح ابن رشيق
بعد ذلك ركوب البحر فحشن له مسه ، ولم تساعده على ركوبه نفسه . فقال
البيتين »

﴿ وفاته ﴾

قالوا انه توفي ببلدة مازر (Mazzara) التي نسب اليها الامام المازري^(٢)
صاحب المعلم بفوائد كتاب مسلم . والظاهر أنها آخر بلدة بصقلية خرجوا اليه
أيدي الفجار أصحاب رجاء ، لانها هي ومرساها المسمى مرسى علي . كانا تجمعا
المهدية من افريقية . فكان المسلمين قتلوا من أعماق الجزيرة هناك لينتهزوا
فرصة الخروج . قال الشريف الادريسي^(٣) إن الناس كثيراً ما ينتقلون من

(١) مسالك الايام أمارى ٦٥٣

(٢) أبو عبد الله محمد بن علي المازري الفقيه المحدث ترجم له ابن خلكان ١ : ٤٨٦

(٣) نزهة المشتاق أمارى ٤٠

الإفريقية إلى مرسى دلي، ومنه إلى مازر اثنا عشر ميلا

وأما عام وفاته فهو على ما قال ابن خلدكان^(١) سنة ٤٦٣ هـ وفيه توفي
مُسند العراق أبو بكر الخطيب البغدادي ثم قال « ورأيت بخط بعض الفضلاء
أنه توفي سنة ست وخمسين وأربعمائة بمآزر والاول أصح » ثم قال بعد نحو سطر
« وقيل انه توفي ليلة السبت غرة ذي القعدة سنة ٤٥٦ هـ ». وفي مختصر إنباء
الرواة بأنباء النجاة « مات بمآزر في طلق (خارج) سنة خمسين وأربعمائة » .
فمهره دلي القول الاول ٧٣ عاماً وعلى الثاني ٦٦ . وأما السنة ٤٥٦ المذكورة
في كشف الظنون فأظن أصلها من ابن خلدكان

وأما صاحب البساط^(٢) فهناك تذييله قل أولاً أنه توفي سنة ٤٥٦ هـ ثم قال :
وقل ابن خلدكان سنة ٤٥٣ هـ وهو عام ارتحاله إلى صقلية والاول أصح عندنا لأن
غالب أصحاب التراجم متفقون على أن ابن رشيقي توفي وقد بلغ سنه سبعين وهذا
ما يؤيد ولادته في حدود عام ٤٨٥ هـ والله بالحقيقة أعلم اهـ

أقول ولا أرى في هذا صواباً غير قوله والله بالحقيقة أعلم . فقد علمت أن
ابن خلدكان لم يختر من الأقوال إلا قول سنة ٤٦٣ هـ وذلك أيضاً في أسماء الأعداد
لا الأرقام حتى يتداخله الشك ولا يقال أن سنة البساط ٤٥٣ من غلط المنضد
لأن قوله بعد هذا « وهو عام ارتحاله إلى صقلية » يؤيد أنه لم يزل إلى ابن
خلدكان إلا عام ٤٥٣ هـ فإنه لم يرحل إلى صقلية إلا في هذه السنة ثم أخذ ينقب
عن شاهد إمام الولادة الذي ذكره أعني سنة ٤٨٥ هـ كما قال هنا وهو يريد عام
٣٨٥ على ما مرّ شرحه